

Thème du concours blanc – proposition de corrigé (M. Bertrand)

أما العِبرةُ - بل العِبرةُ البليغةُ - التي هي عَقْوَةُ الإعدامِ في نَظَرِكُمْ، فَإِنَا نَعْرُفُهَا حَقَّ المَعْرِفَةِ. عُرِفتْ تِلكَ العِبرةُ بِاسْمَاءٍ مُخْتَلِفةٍ كُلَّ مِنْهَا يُذَكِّرُنَا بِسِلْسِلَةٍ خَاصَّةٍ مِنَ الْحَقَائِقِ وَالْأَفْكَارِ: طَالَّا أَطْلَقَ عَلَيْهَا "مَشْنَقَةَ مُونْفُوكُونَ" ثُمَّ جَعَلَتْ "سَاحَةَ جَرِيفَ" عَلَيْهَا أَيَّامَ الثُورَةِ وَتَعْرَفُ الْيَوْمَ بـ"بَابِ الْقَدِيسِ جَاكَ". لِتَأْمُلُوا مَرَاحِلَ الْثَلَاثَ لِهَذَا الْأَنْجَطَاطِ الْتَدَرِيجِيِّ: أَوْلًا "مَشْنَقَةَ مُونْفُوكُونَ" وَهِيَ الْعِبرةُ الْمُرِوْعَةُ الدَائِمَةُ؛ ثُمَّ "سَاحَةَ جَرِيفَ"، وَهِيَ الْعِبرةُ الَّتِي لَا تَزَالُ مُرِوْعَةً وَلَكِنَّهَا لَمْ تَعْدْ دَائِمَةً؛ وَآخِيرًا "بَابِ الْقَدِيسِ جَاكَ" وَهِيَ الْعِبرةُ الَّتِي لَمْ تَعْدْ لَا مُرِوْعَةً وَلَا دَائِمَةً - عِبرةٌ مُثْلِهَا مُثْلُ الْمِسْكِينَةِ الْمُرِتَبَكَةِ الَّتِي بَلَغَ بِهَا الْقُلُقُ وَالْخَجْلُ وَالْحِيرَةُ وَالْخُوفُ مِنْ نَفْسِهَا دَرَجَةً أَنْ أَصْبَحَتْ تَنَكِّشُ عَلَى نَفْسِهَا وَتَهْرُبُ وَتَسْتَرُ. هَا هِيَ وَصَلَتْ إِلَى بَابِ مِنْ أبوابِ بَارِيسَ. فَاقْبِضُوا عَلَيْهَا الْآنَ! وَإِيَّاكمُ ثُمَّ إِيَّاكمُ أَنْ تَفَرَّ هَارِبَةً فَتَبْتَدَعَ وَتَخْتَفِي!

كَيْفَ الْوَجْهُ فِي ذَلِكَ؟ أَعْجَبٌ بِعِبْرَةٍ تَخْتَيِّي وَتَبْذُلُ كُلَّ مَا يُوْسِعُهَا لِثَلَاثَ يُعْتَبَرُ بِهَا. لَا تَضْحَكُوا! هَذِهِ الْمُفَارَقَةُ لَيَسْتُ عَجِيْبَةً إِلَّا فِي ظَاهِرِهَا. وَالْوَجْهُ أَنْ تَحْتَ الْأَمْرِ لَسِرَّا عَظِيمًا يُهْزِّ الْمَشَاعِرَ. إِنَّمَا هُوَ الْحَيَاةُ، هَذَا الْحَيَاةُ الْجَمِيلُ الَّذِي يَحْمِلُ الْمَجَمِعَ عَلَى أَنْ يَغْضَبَ طَرْفَهُ أَسْتِقْبَاحًا لِلْجُرْيَةِ الَّتِي يُرْغِمُهُ الْقَانُونُ عَلَى أَرْتِكَابِهَا. وَهَذَا دَلِيلٌ يُثِبِّتُ أَنَّ الْمَجَمِعَ يَعِي مَا يَفْعُلُ بَيْنَمَا الْقَانُونُ لَا.

انظُرُوا وَتَأْمُلُوا وَتَدْبِرُوا إِنْكُمْ تَتَشَبَّهُونَ بِهَذِهِ الْعِبْرَةِ. لِمَاذَا؟ لِمَا تَعْلِيهِ. وَمَاذَا تُرِيدُونَ أَنْ تَعْلِمُوهُ مِنْ خِلَالِ عِبْرِتُكُمْ؟ أَنَّ الْقَتْلَ غَيْرَ جَائزٍ. وَكَيْفَ تُدَرِّسُونَ أَنَّ الْقَتْلَ غَيْرُ جَائزٍ بِالْقَتْلِ.

فِي فَرَنْسَا غَدَتْ عِبْرَتُكُمْ هَذِهِ مُسْتَرَّةً جُزِئِيًّا. أَمَّا فِي اَمْرِيَّكَا فَإِنَّهَا مُسْتَرَّةً كُلِّيًّا. كَانَ يَامِكَانِيَا أَنْ نَقْرَأَ فِي الصُّحُفِ الْأَمْرِيْكِيَّةِ فِي الْأَيَّامِ الْآخِيَّةِ خَبَرَ إِعدَامِ رَجُلٍ إِسْمَهُ "هُولَ". لَمْ تَفْذِ عَقْوبَتِهِ فِي مَكَانٍ مَا عَلَى نَحْوِ السَّاحَةِ الْعَامَّةِ كَمَا تَجْرِي بِهِ الْعَادَةُ فِي بَارِيسَ بَلْ نَفِذَتْ دَاخِلَ السَّجْنِ، "فِي الْرِّزْنَانَةِ". هَلْ كَانَ هُنَاكَ مُشَاهِدُونَ؟ نَعَمْ، بِلَا شَكٍّ. مَا عَسَى أَنْ تَكُونَ الْعِبْرَةُ فِي غِيَابِ مُشَاهِدِينَ؟ أَيُّ مُشَاهِدِينَ إِذْنَ؟ أَوْلًا الْعَائِلَةُ، عَائِلَةُ مَنْ؟ أَعَائِلَةُ الْمَحْكُومِ عَلَيْهِ؟ كَلَّا، بَلْ عَائِلَةُ الْمُجْنِي عَلَيْهِ. قُدِّمَتِ الْعِبْرَةُ مِنْ أَجْلِ عَائِلَةِ الْضَّحِيَّةِ.

فَكَانَتْ لِأَيِّ الْضَّحِيَّةِ وَأَمْهَا وَزُوْجِهَا (إِذْ كَانَتِ الْضَّحِيَّةُ اُمَّرَّةً) وَإِخْرَهَا : "فَلَتَعْتَرُوا يَا أُولَى الْأَلَابِ!" عَفْوًا، كِدْتُ أَنْسِي : كَانَ هُنَاكَ مُشَاهِدُونَ آخَرُونَ، حَوَالَيْ عَشْرِينَ رَجُلًا مِنَ الْكَرَامِ الْفَضَلَاءِ حَضُورًا بِدَعْوَةٍ خَاصَّةٍ لِلقاءِ جُنْيهِ لِلفردِ. هَا هِيَ حَقِيقَةُ عَقُوبَةِ الْإِعدَامِ الْيَوْمَ: إِنَّهَا تَقْدِيمٌ عَرُوضًا لِلنُّجُّوْهَةِ وَرَاءَ أَبْوَابِ مُغْلَقَةٍ... تَقْدِيمٌ عَرُوضًا مَدْفُوعَةِ الْأَجْرِ وَتَسْمِيَ ذَلِكَ "عِبَارًا لِلمُعْتَرِّينَ"!

إِنَّكُمْ بَيْنَ خِيَارَيْنِ لَا ثَالِثَ لَهُمَا: إِمَّا أَنْ تَكُونَ عَقُوبَةُ الْإِعدَامِ عِبَرَةً أَخْلَاقِيَّةً، وَإِمَّا أَنْ تَكُونَ غَيْرَ أَخْلَاقِيَّةً. إِنْ كَانَتْ أَخْلَاقِيَّةً فَفَوْزُكُمْ تَسْتُرُونَهَا؛ وَإِنْ كَانَتْ غَيْرَ أَخْلَاقِيَّةً فَهَلَا تَرْكُمُوهَا؟ لَيْسَتِ الْعِبَرَةُ عِبَرَةً حَتَّى تَكُونَ جَلِيلَةً؛ إِنْ كَانَتْ هَيْنَةً فَلَا تَرْتَعِشُ مِنْهَا الْقُلُوبُ بَلْ تَشْمَئِزُ مِنْهَا. وَمِنْ ثُمَّ تَغُدوُ الْعِبَرَةُ الْأَرَادَةُ لَا تَنْفَعُ وَلَا تَضُرُّ وَتَصِيرُ الْعِبَرَةُ الْزَّاجِرَةُ هُزَّةً بَاسِسَةً. إِنَّهَا تُشَبِّهُ الْجَبَنَ إِذَنَهُ، بَلْ إِنَّهَا الْجَبَنُ بِعِينِهِ. مَا دَامَتْ عَقُوبَةُ الْإِعدَامِ تُنْفَذُ فِي الْخَفَاءِ سِرًا فَلَا فَرَقَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ فَخِّ يَنْصِبِهِ الْمُجَتَمِعُ لِلفردِ. فَلَتَكُونُوا مَنْطَقِيَّينَ! كَيْ تَكُونَ الْعِبَرَةُ عِبَرَةً لَا يَكْفِيُ أَنْ تَكُونَ بِمَرَأَيِّ وَمَسْمَعِ مِنَ النَّاسِ. بَلْ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ لَهَا نُفُوذٌ إِلَى قُلُوبِهِمْ. وَلَا نُفُوذٌ لَهَا فِي الْقُلُوبِ حَتَّى تَكُونَ مُرْوَعَةً. فَلَتَعُودُوا إِذْنَ بِعَقُوبَةِ الْإِعدَامِ إِلَى "سَاحَةِ جَرِيفَ"! وَلَكِنْ لَا يَكْفِيُ أَنْ تَكُونَ مُرْوَعَةً بَلْ يَجِبُ أَنْ تَكُونَ دَائِمَةً: لِتَعُودُوا بِهَا إِذْنَ إِلَى مَشَقَّةِ "مُونْفُوكُونَ". أَتَحْدَأُكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا!

أَتَحْدَأُكُمْ أَنْ تَفْعَلُوا! لِمَ؟ لِأَنَّكُمْ أَيْضًا تَرْتَعِدُونَ مِنْ هُولِ هَذِهِ الْفِكْرَةِ. لِأَنَّكُمْ تُدْرِكُونَ تَمَامَ الْإِدْرَاكِ أَنَّ كُلَّ خَطْوَةٍ إِلَى الْوَرَاءِ فِي هَذَا الْطَّرِيقِ الشَّنِيعِ هِيَ خَطْوَةٌ فِي اِتَّجَاهِ الْهَمْجِيَّةِ. لِأَنَّ مَا تَسْمُوُ إِلَيْهِ أَجِيَالُ الْقَرْنِ التَّاسِعِ عَشَرَ الْعَظِيمَةِ لَيْسَ خَطَوَاتٍ إِلَى الْوَرَاءِ بَلْ خَطَوَاتٍ إِلَى الْآمَامِ! لِأَنَّ لَا أَحَدَ مِنْكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَعُودَ إِلَى أَطْلَالِ الْمَاضِي الْبَشِّعِيَّةِ وَالْمُشَوَّهَةِ، لِأَنَّا كُلُّنَا نَوْدُ أَنْ تَتَقَدَّمَ بِخَطْوَةٍ وَاحِدَةٍ وَيَقْلِبَ وَاحِدَةٍ نَحْوَ بَنَاءِ الْمُسْتَقِبِ الْمُشْرِقِ!

لِنَدْعُ عَنَّا نَظَرِيَّةَ "الْعِبَرَةِ". وَكَمَا تَرَوْنَ فَقَدْ صِرَاطُكُمْ تَخْلُونَ عَنْهَا بِأَنْفُسِكُمْ.

مِنْ "خَطَابٍ ضِدَّ عَقُوبَةِ الْإِعدَامِ" لَفِيكتُورِ هوْجُو (١٨٤٨)